LA NATIONALISATION DE LA LITTERATURE

J. P. SARTRE

تأميم الأدب

[ننشر هذا المقال الرائع الذى تفضل بارساله إلينا الكاتب الفرنسى العظيم جان بول سارتر . وسيرى القراء أنه يعرض لموضوع عظيم الخطر هو الصلة بين الأدب والسياسة والاجتماع . وكل مانتمناه هو أن يتدبر أدباؤنا هذا المقال القيم ، فقد يدعو كثيراً منهم إلى التفكير ، وقد يثير فى نفس كثير منهم خواطر قيمة]

فى سنوات الفوضى الشاملة التى تلت معاهدة ڤرساى كان المؤلفون يستحيون من الكتابة ، وكان النقاد لا يرغبون فى القراءة . ولم يكن الإنسان يجد أدباء فى الأندية الأدبية ، بل يلقى فيها أشخاصاً احترفوا الكتابة فى الغزل الماجن والإجرام واليأس والثورة والتصوف . وكان هؤلاء الكتاب يقبلون ، على أثر إلحاح ناشريهم ، أن يصدروا رسالة مرة أو مرتين فى كل سنة . ولما كانوا لا يعيرون قراءهم أقل اكتراث ، فضلاً عن أنه أصبح من الأمور المتفق عليها أنه ليس فى وسع الألفاظ التعبير عن المعانى ، فإن الجمهور كان يشترى كتباً كثيرة ولكنه يقرأ قليلا . وإذا ما دفع الشعور بتبعة المهنة أحد محررى الصحف إلى التفرغ بضع ساعات لهذه المهمة ، فإن نظره كان ينفذ خلال النص كما تنفذ الشمس خلال زجاج النافذة ، ويبلغ الرجل نفسه فيجعله موضوع كتابته . ذلك أن دوق العصر كان يميل إلى الإرهابية . وكانوا يفترضون أن المؤلفين لم يكتبوا قط ، وإذا ما نظروا إلى مؤلفاتهم فلم يكن ذلك إلا باعتبارها مجموعة من المعلومات المنوعة عن خُلُقهم . وكانوا يتحدثون عن وسائلهم الكتابية وعن أساليبهم البيانية ، كأن الأمر لم يكن متعلقاً بحيل فنية يصطنعونها ، بل

بتفاصيل شيقة تتصل بحياتهم الخاصة . فلم يكونوا يذكرون عن «جيرودو» أنه نشر هذا الكتاب أو ذاك ، بل « أنه يأخذ بيدنا ، ويجعلنا ندور معه . بخيل إلينا أننا نتبعه فى « بيلاك »[1] وهانحن أولاء فى الصين ، تراه يرمى بسهم يصوّبه نحو برلين وإذا بطير من طيور الجنة يهوى من السماء فى «ميلووكى»[2] » ونستطيع أن نتبين من هذا إلى أى مدى وصل الاحتقار فى ذلك الوقت للمسائل الأدبية الخالصة .

أما اليوم فقد تغيرت الحال ، وقد أعيد إلى الأدب وإلى البيان كرامتهما وسلطانهما . ولم يعد المقصود إشعال نيران فى أدغال الحديث ، والمزاوجة بين « ألفاظ » يحرّق بعضها بعضاً ، وإدراك المعانى المطلقة بإحراق مفردات القاموس ، بل أصبح الغرض من الكتابة تحقيق الاتصال بين الكاتب وغيره من الناس عن طريق استعمال الوسائل الموجودة القريبة من متناول اليد استعمالا متواضعاً . وإذ قد زال الزّهْو الذى كان يقضى بفصل الفكرة عن اللفظ ، واستقلال كل منهما عن الآخر ، لم يعد من الممكن حتى أن نتصور احتمال أن الألفاظ لا تعبر عن الفكرة تعبيراً صادقاً . وقد استرد قدر من الأمانة والصدق يسمح بألا يُقبل حكم يصدر على أساس هذا الشعور الفائق الوصف البعيد المنال الذى لا تستطيع الألفاظ الإفصاح عنه ولا يسع الأفعال بيانه . وقد رئى أنه لا يمكن تعرف النيات إلا عن طريق الأعمال التى تخرجها إلى الوجود وتحققها ، ولا تبين المعانى إلا عن طريق الألفاظ التى تترجمها وتعبر عنها . وعاد النقاد على أثر ذلك إلى القراءة . وكان هذا خير ما يمكن أن يرجوه الإنسان ويتمناه ، لو لم يظهر فى الأسلوب الذى يصطنعه النقاد للتحدث عن الآثار الفكرية بوادر اتجاه جديد أشد خطراً من الاتجاه القديم . نعم إنه لم يعد أحد ينظر إلى المؤلف على اعتبار أنه رجل شاذ أو مجنون أو قاتل أو دجال ، أى على أنه دمية من هذه الدمى التمثيلية المهرجة . بل على العكس لا يترك النقاد فرصة تمرّ دون أن يذكّروه بعظمته وبالواجبات الملقاة على عاتقه .

ولست أدرى حيال ذلك أخير للكاتب أن ينظر إليه على أنه من هذه

---

(١) القرية التى ولد فيها بفرنسا .
(٢) مدينة فى الولايات المتحدة .

[التعليقات كلها من المترجم]

الدمى التمثيلية ، من أن ينظر إليه تلك النظرة الرسمية التى ينظر بها إلى موظف حكومى ذى مركز محترم . فان الوقار الذى يحاط به الكاتب يذكر تذكيراً قويًّا بذلك الوقار الذى يوجه إلى السيدات العاملات فى الجمعيات الخيرية وإلى كبار موظفى الحكومة . وقد قال لى ذات يوم شخص ذو مكانة رسمية وهو يتحدث عن « دولان [1] » : « إنه ثروة وطنية » . لم أضحك من هذا القول لأن القلق يساورنى بسببه ؛ إذ أنى أخشى أن يسعى اليوم عن طريق مناورة ماهرة إلى تحويل الكتاب ورجال الفن إلى ثروات وطنية . لا شك أن لنا أن نغتبط من أن الحديث عن حوادثهم الغرامية قلّ ، وأن قد زاد من ناحية أخرى التحدث عن آثارهم نفسها . إنما هذا الحديث الأخير يغمره إجلال مغالى فيه وزائد عن الحد . وليس مرجع ذلك أن النقاد ازدادوا تسامحاً ، أو أنهم يتساهلون فى المدح والثناء ، إنما مرجعه أن هؤلاء النقاد لا يستطيعون وضع المؤلفات التى يتحدثون عنها فى مواضعها إلا بصعوبة كبيرة . وقد أتى على الأدب حين من الدهر كان مجرد الاجتراء على نشر كتاب — بعد ما كتبه « راسين » أو « فينيلون » أو « بسكال » — يعد وقاحة بالغة . ولم يكن تفوّق الكاتب — مهما امتاز هذا التفوق — من شأنه أن يجلب له الصفح عما ارتكب من جرم باقباله على الكتابة . أما اليوم فالأمر على عكس ذلك . والآثار الأدبية الجديدة ينظر إليها حتى قبل ظهورها نظرة فيها كثير من الرضا والعطف . على أن هذه الرعاية لا تتجه إلى ما يبذل الفنان من جهد للتعبير عن شعوره ، وهو دائماً جهد فردى منعزل وفيه كثير من التردد وعدم الاستقرار . إنما مبعثها أنه ينظر إلى كل كتاب جديد كأنه حفلة رسمية ، أو إن شئت فقل كأنه مساهمة مطاوعة للاشتراك فى أعياد الجمهورية الرابعة واحتفالاتها . ولا يُنقد هذا الكتاب على أنه ثمر ما زال فجًّا ولا يزال فى حاجة إلى النضج حتى يستخلص منه كل ما ينطوى عليه من قيمة ومن معان ، بل يُتحدث عنه كما يتحدث عن وليمة يقيمها المحاربون القدماء ، أو عن ذلك المعرض السنوى الذى يقام للسيارات . وقد أخذ جمهور قراء الأدب يحذو هذا الحذو وينتهج هذه السبيل . ففى بعض الأوساط لم يعد يقال عن قصة أو قصيدة أو عن أى أثر أدبى إنه رائع أو طريف

---

(١) أحد كبار المخرجين المعاصرين فى المسرح الفرنسى .

أو مؤثر ، إنما يتخذ صوت رخيم ينطوى على كثير من الاهتمام للإدلاء بهذا النصح : « عليك بقراءته فانه مهم جداً » . مهمٌ كأنه خطاب يلقيه بوانكاريه يوضح فيه سياسته المالية ، بمناسبة إزاحة الستار عن نُصب تذكارى للموتى ، أو كأنه حديث يدلى به زعيم من زعماء العمال . تصور مثلا أن مدام دى سيفينييه تكتب لابنتها : « لقد شاهدت مسرحية « إستير » ، إنها خطيرة جداً » . هل يتحول الأدباء فيصيروا رجالا مهمين ؟

ثم كيف نستطيع أن نحكم على خطورة مؤلفات تبتدئ فى وجودها ؟ أليس ينبغى أن تمر مائة عام حتى يمكن تقدير هذه الخطورة ، وذلك بالحكم على نتائج هذه المؤلفات وعلى ما أحدثت من أثر ؟ وسرعان ما تدرك النهج الذى ينتهجه النقاد ومدّعو الحكم فى الأدب . فاهتمامهم بتقدير الكتاب فى نفسه أقل من اهتمامهم بتقدير ما سيكون لهذا الكتاب من أثر فى الوقت الحاضر وفى المستقبل تقديراً إجماليًّا مقدماً . وعلى ذلك فإنهم يرسمون فى الحال التيارات الأدبية التى سيوجدها ، ويحللون الدور الذى سيقوم به فى حركة اجتماعية لم تنشأ بعد . فعند ما نشر مسيو « جوليان جراك »[1] كتابه « المظلم الرائع » بادر النقاد إلى التحدث عن « عودة إلى السوريالزم » . عودة مَنْ ؟ فإن مسيو جراك لم يُفارق هذا المذهب فى يوم من الأيام . وحتى إذا رجعنا إلى « قصر أرجول »[2] فأنّا نتبين على عكس ذلك أنه يبتعد كثيراً عن أسلوبه الأول . غير أن نقادنا الحاذقين لا يكترثون بإظهار ما فى آراء الكاتب من اتصال ، أو ما يطرأ على شخصيته من تطوّر بطىء مع محافظتها على نهج أساسى واحد . وإنما ينظرون إلى الأثر الأدبى فى نفسه ، كأنه منفصل عن مؤلفه . ففى سنة ١٩٤٥ أى بعد تحرير فرنسا بستة أشهر قامت « ظاهرة من ظواهر مذهب السوريالزم » . هذا وحده ما يسترعى اهتمامهم . وكان هذا أسلوبهم فى النقد حتى قبل الحرب ؛ إذ كانوا يقولون عند ما ظهر « سان ساتورنان[3] » : « هذه القصة تعتبر مرحلة هامة ،

---

(١) من الكتاب المعاصرين الملحوظين . وكتابه المذكور « المظلم الرائع » يدخل مذهب « السوريالزم » فى الأدب دون أن يعتبره مذهباً خاصاً ، بل باعتباره أسلوبا طبيعياً من أساليب الكتابة .

(٢) ظهر قبل « المظلم الرائع » . وهو أول كتاب أصدره وعرّفه إلى الجمهور .

(٣) قصة ظهرت حوالى سنة ١٩٣٥ .

إذ أنها تدل على عودة النظام إلى الأدب » . ما أعجب هذا الحكم ! فإن نشأة مسيو « شلومبرجيه » والتحاقه بحزب النظام يعتبران مرحلة واحدة . وإذا نظرنا إلى أصحاب الشغب والاضطراب أمثال « بريتون » و « كوكتو » فإنى لا أظن أن « سان ساتورنان » قد أثّر فيهم أقلّ تأثير ، بل لعلهم لم يقرءوه . ومع ذلك فإن مثل هذا الاعتراض لا يزعجهم فى قليل أو فى كثير . فكل عام جديد ، بل كل مطبوع جديد يعتبر فى نظرهم بدء مرحلة أو نهايتها ، أو كأنه فى نفس الوقت بداية ونهاية . وهذا أحد النقاد يتنبأ لنا بأن أمامنا عشرين عاماً عجافاً لن تظهر آثار هامة قبل مرورها . على أن غيره يرى فى نفس الوقت أن تلك الفترة ستأتينا بسنوات سمان ، وهو يبين لنا فى دقة كيف أن أدب المستقبل القريب سيكون خصباً بسبب ما أحدثه الاحتلال من آلام وما أنزله من محن . ويحذّرنا ثالث من خطر التأثير الأمريكى فى الأدب الفرنسى ، أى إن أمامنا عشرين عاماً من القصص الأمريكى . على أن رابعاً يهدئ من روعنا ، لأن نشر قصة ، ولا أدرى أية واحدة هى ، كان بمثابة الناقوس الذى يؤذن بوفاة هذا التأثير السيئ وانقضائه ، فى حين يقول خامس وسادس وسابع بظهور مذاهب أدبية جديدة يستكشفونها فيما نحن فيه من اضطراب . فيقولون لنا إن هناك مذهباً « وجودياً [1] » يمتد أثره فيشمل فنون الرسم والتصوير ؛ إذ أنه يوجد رسامون ومصورون « وجوديون » ، بل موسيقيون « وجوديون » . ويظهر — وأنا أعتذر من التحدث عن نفسى — أن لى فى ذلك شأناً . على أننا إذا صدّقنا ناقداً آخر فليس لى أى دخل فى ذلك ، إذ أنى زعيم مذهب « السوريالزم الجديد » ، وتحت لوائى « إيلوار » و « بيكاسو » (وأنا أستميحهما كل العذر من ذلك ؛ فإنى ولله الحمد ، لم أنسَ بعد أنى لم أكن إلا طفلا غِرًّا فى الوقت الذى بلغا فيه مكانتهما الفنية التى يؤمن لهما بها الناس جميعاً) . وآخر مذهب ظهر مذهب « التبؤس » وهو مذهب من حداثة العهد بحيث لم أعرف بعد أن له من يمثله بين الأدباء . وإلى جانب هذا فهناك ألوان أخرى من العبث ، مثال ذلك أن يحلو لبعضهم أن يصوّروا لنا الكتاب الذى ننتظره . وهم يرونه كما كان « چوفروا روديل [2] » يرى الأميرة النائية . ويجدون عبارات

(١) يعتبر « سارتر » كاتب هذا المقال زعيم هذا المذهب فى فرنسا .
(٢) شاعر من شعراء القرون الوسطى .

يتحدثون بها عنه تبلغ من الإقناع حدًا يجعلنا نراه معهم . وها هو ذا العالم قد جعل ينتظر فى شوق عظيم هذه القصة التى أصبحت قصة المستقبل ، والتى أسبغ عليها منذ الآن مسحة من وقار الحفلات الجليلة الرهيبة . سنجد فيها تصويراً لسيمائنا وآمالنا وغضبنا . ولا يبقى بعد ذلك إلا أن نجد متطوعاً يكتبها . ويذهب ناقد آخر إلى أننا نجتاز الآن ثورة ؛ فلأدبنا إذن كل خصائص أدب الثورات ، ثم هو يسرد هذه الخصائص . ومن ذا الذى لايفهم حَنَق هذا الناقد الأخير عند ما يتبين فيما بعد أن الكتّاب الشبان من الخفة والرعونة بحيث لايحققون نبوءاته . لابد أن يكونوا كتّاباً أدعياء ، هدّامين ، بل لعلهم من المحافظين الرجعيين . وقد تحدث أحد النقاد فى الشهر الماضى عن قصة فرنسية ممتازة عن الأنصار البولنديين ، فكتب فى كل اطمئنان وبساطة : « إنها قصة المقاومة » . ولو أننا كنا فى الأزمنة الماضية لامتنع النقّاد عن الحكم على المستقبل بهذا الشكل الجازم الذى يقطع كل سبيل ، ولتركوا فرصة للروس والبلچيكيين والهولنديين والتشيك والإيطاليين ، بل للبولنديين أنفسهم وللآلاف من الفرنسيين المتحفظين بكتاب عن هذا الموضوع . أما الناقد المعاصر فلا يبالى بمثل هذا الاحتياط السخيف ، فإن لذته فى تعميم الأحكام وتطبيقها على الحالات المشابهة . وعند ظهور أى أثر أدبى جديد يقوم بعمل حساب ختامى ، كأن هذا الأثر حدٌّ يبين انتهاء التاريخ والأدب . فنرى « الحساب الختامى للاحتلال » و « الحساب الختامى لسنة ١٩٤٥ » و « الحساب الختامى للأدب التمثيلى المعاصر » . هو مغرم بهذه الحسابات الختامية . وليسهّل على نفسه وضعها يقف بجرة قلم سير الكاتب فى مهنته . مثال ذلك أن كثيراً من النقاد قرروا بكل اطمئنان ودون تردد بعد ظهور « المدعوة » و« إزيكو » أن « سيمون دى بوفوار [1] » وأن « مولوجى [2] » لن يكتبا شيئاً بعد ذلك . كما أنى أذكر أن ناقداً كان يسائل : ألا يكون « الغثيان » ، وهو أول كتاب لى ، فى نفس الوقت « وصيتى الأدبية » ؟ وكانت هذه دعوة رفيقة ، إلى التوقف ؛ إن المؤلف الذى يعرف كيف يعيش يكتب

---

(١) زوجة « سارتر » وتعتبر من أنصار المذهب « الوجودى » .

(٢) كاتب شاب من الملحوظين . اكتشفه « سارتر » . والده من سكان أفريقية الشمالية ، ووالدته فرنسية .

وصيته الأدبية فى سن الثلاثين ، ثم يقف عند هذا الحد . والشنيع من أمر هؤلاء المؤلفين الجادين المجتهدين الذين يخرجون كتاباً كل عامين أن النقاد ملزمون فى كل مرة أن يعيدوا النظر فى الأحكام السابقة التى أصدروها عنهم وإذا كانوا فى كل مرة لا يستطيعون أن يقدّروا بالضبط مصير الكتّاب الناشئين من حيث النجاح والإخفاق ، فإنهم يجدون أنفسهم عند ما يظهر كاتب جديد فى موقف هذا « القارئ » الذى يعمل فى دار كبيرة من دور النشر والذى كتب على مخطوط أرسله إليه « بيير بوست [1] » وعلى أثر قراءته لهذا المخطوط : « يسأل « بييربوست » عن المؤلف ، أموهوب هو؟ » . والسؤال عن المؤلف الموهوب فى لغة الناشرين معناه : كم كتاب فى صدره ؟ وقد قرر النقاد أنه لايوجد فى صدر « مولوجى » إلا كتاب واحد ، أى إنهم بادروا فى الحكم على هذا الشاب وأصدروا حكمهم عليه كأنهم انتقلوا الى المستقبل ، فى نهاية حياته الطويلة ، واستقروا استقراراً ثابتاً فى هذه اللحظة الدقيقة الممتازة التى تفيض فيها نفس « مولوجى » والتى يمكن فيها طبقاً للحكمة القديمة أن يقرّر أعاش سعيداً أم شقيًّا ، مجنوناً أم عاقلاً . وهم ينظرون إلى « أنريكو » ، وهو الأثر الأدبى الوحيد لهذا المتوفى ، وعلى اعتبار أنه لم يصدر بعده أى أثر آخر من شأنه أن يدفع على إعادة النظر فى الموضوع ، فيصدرون عليه حكماً نهائيا . قد تقول : لكن « مولوجى » أصدر كتاباً ثانيا بعد ذلك . هذا صحيح ، ولكن كان مخطئاً حين أصدر هذا الكتاب ، وقد بيّن النقّاد له ذلك بشكل جلى واضح .

مامعنى كل هذا ؟ وما الصلة بين الخواطر المختلفة المتناثرة التى عرضناها ؟ عندما تستاء من قراءة مقال فى إحدى الصحف فقلما تفكر فى كاتبه . ولو أنك فكرت لما وجد سخطك لنفسه تكأة ، ولهبط استياؤك ، إلا إذ كان المقال صادراً عن رجل شهير . وإذا بدا لك هذا المقال على أنه سخرة كلف به محرر مسكين فحرره فى الليل وسط ضوضاء غرفة التحرير المشتركة ، فإن غضبك سيتحول إلى رثاء . ذلك أنك لاتنظر إلى الألفاظ التى تثير سخطك على أنها إشارات مطبوعة على الورقة التى بين يديك ، بل يخيل إليك أنك تسمعها مترددة على آلاف الشفاه كأنها هفيف الريح فى اليراع . وكل واحد من هذه الألفاظ حدث اجتماعى مادام قد مر من

---

(١) قصصي معاصر

شفاه البعض إلى آذان البعض الآخر ، ومادام كان سبباً فى إيجاد اتصالات متكررة بين مختلف اعضاء الهيئة الاجتماعية . وفى نهاية الأمر لانجد للمقال صلة على الاطلاق بالهذيان الليلى الذى يصدر من صحفى غير مسئول ، انما هو تمثيل مجموعى عام ينتشر خلال مئات الآلاف من الأذهان . وهو باعتباره تمثيلا مجموعياً يبدو لك فى نفس الوقت ضارًّا ومحاطاً بالجلال . وقد اتفق النقّاد والأدباء اليوم على النظر إلى أى كتاب نظرتهم إلى مقال فى صحيفة يومية . ولايشغلون أنفسهم بما أراد المؤلف أن يقول ، بل هم أكثر من ذلك ينظرون إلى هذا الكتاب كأنه لم يكن له مؤلف . ولايهتمون به إلا على أنه عبارة جامعة سائرة ستحشد خلال بضعة أيام أو بضعة أشهر جيشاً من القراء . وهم يرون فيه إنتاج الشعور المجموعى قد صدر من تلقاء نفسه ، أو كأنه مؤسسة من المؤسسات العامة . وليجيد الناقد وصف هذه المؤسسة ويوضح تطورها نحو غايتها ، ويبيّن مختلف تأثيراتها ، فانه يؤثر أن ينظر إليها بأعين حفدته ، وأن يبدى رأيه فيها كما يصدر كتاب دراسى فى الأدب حكمه عن كتاب مضى عليه خمسون ومائة عام . فالواقع أن مثل هذه الكتب الدراسية هى التى تستطيع وحدها أن تقدر مدى التأثير الفعلى لأى إنتاج ذهنى ، وهى التى تستطيع وحدها أن تفسر لنا ماصادف من نجاح ، وأن تحكم على بقائه أوعدم بقائه ، لأنها وحدها تستطيع بعد مرور مائة عام أن تكتب التاريخ . فانه يمكن بعد انقضاء هذا الأمد من الزمن أن يصدر حكم صحيح عن «السوريالزم» أعاد أم لم يعد الى الوجود فى السنوات المحيطة بسنة ١٩٤٥ وعن كتاب « التربية الاوربية » أكان أم لم يكن كتاب المقاومة . فبعد مرور مائة عام يمكن تحديد التيارات الأدبية التى ظهرت بعد هذه الحرب . كما يمكن بعد مرور مائة عام أن يكتب وصف دقيق لشكل القصة كما ننتظرها (هذا على فرض أننا ننتظر لها شكلا معيناً) وذلك بمقارنة مدى النجاح الذى يصادف القصص المختلفة التى ستظهر خلال فترة السنوات العشر التالية . إلاّ أننا قوم عجلون . ونحن متسرعون فى معرفة أنفسنا وفى الحكم على أنفسنا . ذلك أنه خلال هذه السنوات العشرين الأخيرة تقدّم الشعور الواعى فى الغرب تقدماً عظيما . وتحت ضغط التاريخ علمنا أننا تاريخيون . فكما ان مختلف فروع العلوم والآداب فى القرن السابع عشر تأثرت ببحوث ديكارت فى الرياضة فاتسّمت بها ، وتأثرت فى القرن الثامن عشر بنظريات نيوتون فى الطبيعة ، وفى القرن التاسع عشر بنظريات كلود برنار

ولامارك فى علم الحيـاة ، كذلك تأثر قرننا بالتاريخ واتّسم به . فنحن نعرف أن أقل حركة تصدر عنا ستعين على صوغ التاريخ ، وأن أشد آرائنا شخصية ستساهم فى تكوين هذا الفكر الموضوعى الذى سيطلق المؤرخ عليه عبارة الفكر العام لسنة ١٩٤٥ . ونحن نعلم أننا ننتمى إلى عصر سيكون له فيما بعد اسم معيّن ومظهر خاص ، وأنه ستستخلص بسهولة خصائصه العامة وتواريخه الهامة ومعناه العميق . ونحن نحيا فى التاريخ كما يحيا السمك فى الماء ، ونشعر شعوراً دقيقاً حاداً بتبعتنا التاريخية . أو لم يقل لنا فى سان فرانسيسكو إن مصير المدنية سيتقرر فى السنوات المقبلة ؟ أو لم يكن هتلر يردد قوله : إن تلك الحرب التى فقدها ستقرر مصير الانسانية لألف عام ؟ وكلما ازداد شعورنا التاريخى حدّة ، ازددنا سخطاً من تخبطنا فى الظلام ، ومن خضوعنا لحكم محكمة لن نعرفها ، ومن شعورنا بأننا نحاكم فى قضية كتلك التى وصفها « كافكا [1] » نجهل ماسيتقرر فيها بشأننا ، بل قد لايصدر فيها قرار . أليس من المؤلم لنا أن يكوّن سرّ عصرنا وتقدير أخطائنا تقديراً دقيقاً موكولاً إلى أشخاص لم يولدوا بعد ، إلى أشخاص لن يزالوا أطفالاً سيؤدبهم أولادنا وحفدتنا حتى بعد وفاتنا بمدة طويلة ؟ نريد أن نقطع الطريق على هؤلاء الأطفال الأغرار ، ونريد أن نُقرّر منذ الآن وللأبد ما يجب أن يكون رأيهم فينا . ولو استطعنا أن نعكف على أنفسنا فننظر فيها وأن نستخلص مالأعمالنا من أثر تاريخى فى نفس الوقت الذى تحدث فيه هذه الأعمال ، فقد يخيل إلينا أننا سنفحم هؤلاء الأطفال ، وأننا سنعرض عليهم حكماً على عصرنا يبلغ من القوة والسداد مبلغاً لن يبقى عليهم بعد ذلك إلاّ أن يقبلوه كل القبول . وكذلك نقضى وقتنا فى تحديد الحوادث التى نحياها وفى ترتيبها وإلصاق عنوانات لها ، نقضى وقتنا فى تدوين كتاب تاريخ دراسى عن القرن العشرين لتقرأه الأجيال المقبلة . ولطالما ضحكنا من هذه التمثيلة الشعبية التى كان مؤلفها يضع على لسان أبطاله من جنود معركة « بوفين [2] » هذه العبارة : « أما نحن فرسان حرب المائة عام . . . » . والآن يجب أن نضحك من أنفسنا ؛ فان شبابنا كانوا يسمون أنفسهم « جيل مابين الحربين » وكان ذلك قبل اتفاق ميونيخ بأربع سنوات . يجب أن

---

(١) اشارة الى القصة التى كتبها « كافكا » واسمها « القضية » . والمتهم فى هذه القضية يتخبط امام تهم لايعرفها ولا يواجه بها ولايعرف الحكم الذى صدر فيها

(٢) معركة وقعت فى اوائل حرب المائة عام .

نضحك منهم وإن أثبتت الحوادث انهم كانوا محقين فيما أطلقوا على أنفسهم من لقب ؛ لأنهم جعلوا يتحدثون عن أشخاصهم كأنهم أبناء أنفسهم . وهذه أيضاً طريقة غير مباشرة للاعلاء من شأن «الأنا» le moi هذا « الأنا »البغيض فان الإنسان لايسعه إلا أن يحترم آباءه وأجداده . يجب أن نقنع أنفسنا بهذه الحقيقة المرّة وهى أنه مهما ارتفعنا للحكم على عصرنا فان التاريخ سيكون فى المستقبل أكثر منا ارتفاعاً لإصدار حكمه علينا . وهذا الجيل الشامخ الذى يخيل إلينا أننا اتخذنا فيه لأنفسنا عش النسْر لن يكون بالقياس إليه إلاّ بمثابة جحر من جحور الضباب ، والحكم الذى نكون أصدرناه سيضم إلى أوراق قضيتنا . ومهما نحاول أن نكون مؤرخى أنفسنا فان مجهودنا سيذهب عبثاً . فما المؤرخ نفسه إلا ثمرة من خلق التاريخ . وحسبنا أن نصنع تاريخ زماننا من يوم إلى يوم كما نستطيع ، وأن نختار بين السبل تلك التى تبدو لنا أقومها . ولكننا لانستطيع أن نصدر فى هذا التاريخ مثل تلك الآراء الحاسمة التى كانت من أسباب نجاح كبار مؤرخينا أمثال « تين » و « ميشليه » ، فنحن فى التاريخ ، يأخذنا من كل وجه . والأمر كذلك بالنسبة للناقد ، فعبثاً يغار من مؤرخ الأفكار .

يستطيع « بول هازار [1] » أن يتحدث عن الأزمة الفكرية فى سنة ١٧١٥ ، ولكنا لا نستطيع أن ندرس « أزمة القصة فى سنة ١٩٤٥ » . بل هل نعلم أن القصة تجتاز الآن أزمة ؟ وكل ما يمكننا أن نتبينه بوصوح ما ينوى كل مؤلف وكل مدرسة أدبية أن يعملاه ، كما يمكننا أن نتبين من آثار هذا المؤلف أو أصحاب هذه المدرسة أينفّذون فعلا برنامجهم . فى مقدورنا أن نستخلص بعض الطوايا المستترة وبعض الأغراض الخفية . ولكن ليس فى وسعنا أن نتصور الشكل الذى سيتخذه هذا الأثر الأدبى فى نظر قراء المستقبل ، كما أنه لا يمكن منذ الآن أن نعتبره من مقتنيات الفكر الموضوعى لعصرنا ، لأن ناحيته الموضوعية لا تزال خافية علينا ؛ إذ أن هذه الناحية ليست إلا المظهر الذى سيتخذه هذا الأثر فى نظر الأجيال المقبلة . فليس يسعنا أن نكون فى نفس فى الداخل وفى الخارج . ونحن حين ندرس الآثار الفكرية بروح من ذلك الوقار الذى لم يكن يتجه فيما مضى إلا لكبار الموتى ، نوشك أن نقضى عليها . فما من

---

(١) كان أستاذ الأدب فى « الكوليج دى فرانس » .

قصصى يكتب عنه الآن — وإن قل شأنه — إلا اتخذت الكتابة عنه مظهر الاجلال الذى كان « لانسون » يتخذه فى أسلوبه للتحدث عن « راسين » أو « بيديه » للتحدث عن « أغنية رولان » . وقد يرضى ذلك بعض الكتاب ، لكن هذا الرضا يصحبه شئ من الحنق الغامض ، لأنه لا يطيب للانسان أن ينظر إليه ، وهو حى ، على أنه بناء من تلك الأبنية العامة . ولنأخذ حذرنا من هذا الأمر ، فان هذه السنة الأدبية ، وهى لا تمتاز بصفة خاصة عن غيرها من السنوات بنوع آثارها وقيمتها ، تملؤها الأبنية العامة . منذ الآن يجب أن نتعلم التواضع من جديد ونصطنع روح المغامرة . وما دمنا لا نستطيع أن نخرج عن الميدان الشخصى إلى الميدان الموضوعى ، من الذاتية إلى الموضوعية — ولا أقصد الذاتية الفردية بل ذاتية العصر — فينبغى أن يعدل الناقد عن إصدار أحكام يظنها نهائية لا مرد لها ، ويجب أن يعتبر نفسه فى نفس موقف الكاتب ويشاطر حظه من حكم المستقبل عليه . فليست القصة تطبيقاً مدبراً محكماً لقواعد الفن الأمريكى ولا توضيحاً لنظريات « هيدجير[1] » ولا هى نشرة من نشرات « السوريالزم » . كما أنها ليست عملا من أعمال السوء ، أو حادثاً له نتائج دولية خطيرة ، إنما هى محاولة فيها مجازفة تحتمل النجاح والإخفاق ويقوم بها فرد من الأفراد . وعند ما يقرأ شخص من معاصرى المؤلف قصته ، وهذا الشخص مثل المؤلف محاط أيضاً بنفس السياج من الذاتية ، فانه يشترك معه فى احتمالاته . فالكتاب جديد غير معروف ، لما يظهر خطره بعد ، وعلينا أن ندخله دون أن يصحبنا دليل . ولعلنا لا نتنبّه إلى أظهر الصفات التى يتحلى بها . كما أنه من الجائز على عكس ذلك ، أن يدفعنا بريق سطحى إلى الخطأ فى تقديره . وربما استكشفنا فى نهاية إحدى صفحاته فكرة ألقيت عفواً ، من تلك الأفكار التى يخفق القلب لها فجأة ، والتى تضىء الحياة كلها ، كما حدث « لدانييل دى فونتانان[2] » عند ما استكشف « الغذاء الدنيوى[3] » . وأخيراً يجب أن نخاطر : أيكون الكتاب جيداً أم رديئاً . لنخاطر فهذا كل ما نستطيع . ومشاركة الناقد فى

---

(١) فيلسوف « وجودى » ، وزعيم هذا المذهب فى ألمانيا . أثر فى « سارتر » وفى مذهبه فى فرنسا .

(٢) بطل من أبطال قصة « أسرة تيبو » تأليف روجيه مارتان دوجار .

(٣) كتاب من تأليف أندريه جيد .

الميل العام إلى التقدير الاجتماعى للكتب ، وخوفه من التقصير فى هذه المشاركة يجعلانه يقرأ للمرة الأولى وكأنه يعيد القراءة ، فهو مطمئن إلى أحكامه . وأخشى أن تكون أحكامه هذه التى يصدرها على كتاب ما فتحجّره تحجيرا علامة من تلك العلامات التى تؤذن بموت الفن ، والتى كان يتنبأ « هيجل » بها .

وقد يُقال : ما الذى يدفعه إلى سلوك هذا المسلك ؟ فهذا الناقد الذى كان يدعى منذ نحو عشرين عاماً تلمّس أدق مايمتاز به المؤلف من خصائص فردية عن طريق حدس دقيق ، ما له يقصر اهتمامه اليوم على البحث عمّا للأثر من صدى فى الهيئة الاجتماعية ؟ ذلك أن المؤلف نفسه أصبح اجتماعيًّا . لم يعدْ فى نظر الناس ذلك الشىء النادر الوجود ، بل تغيرت نظرتهم إليه ، وصاروا يعتبرونه الآن سفيراً لهم وممثلا . وفيما مضى كان كل كاتب جديد يشعر أنه غير مرغوب فيه على الأرض كأنه زائد عن الحاجة ، ولم يكن أحد ينتظره . فالجمهور لاينتظر شيئاً أو بالضبط ينتظر الكتاب الجديد الذى سيصدره القصصيون الذين يعرفهم ، والذين تشبّع بأسلوبهم وتمثل آراءهم ونظراتهم . إلا أن بين المشكلات التى تظهر فى كل عصر والحلول العارضة أو الموروثة التى تحلّ بها هذه المشكلات بقدر المستطاع يتحقق دائماً نوع من التوازن . وكل شخص جديد يظهر مظهر الدخيل . فلم يكن العالم ينتظر فرويد ، وكانت نظريات ريبو وفوندت فى علم النفس تكفى ، مهما كانت قيمتها ، لتفسير كل شىء ماعدا مشكلة أو مشكلتين شاذتين كان يرجى ردّها إلى النظام . كما أنه لم يكن ينتظر أنشتاين ، فكان يُظن أن من الممكن تفسير تجارب ميكلسون ومورلاى دون التخلى عن نظريات نيوتون فى الطبيعة . كذلك لم يكن ينتظر بروست أو كلوديل ، فان موباسان وبورچيه وليكونت دى ليل كانوا يكفون لإرضاء حاجات النفوس الرقيقة المشاعر . ونحن اليوم كذلك لا ننتظر الأفكار أو الأسلوب ، إنما ننتظر الرجال . يُسعى إلى المؤلف فى داره ، ويُتوسل إليه . فإذا ظهر أول كتاب له قيل : « ما هذا ! ما هذا ! قد يكون المؤلف رجلنا . » وإذا ماظهر الثانى فنحن واثقون بأنه هو هو . وإذا ظهر الثالث يكون قد عُقد له لواء الامارة ، فأخذ يرأس اللجان ويكتب فى الصحف السياسية ويُرشح للنيابة فى البرلمان أو لعضوية المجمع اللغوى . المهم أن يتوّج فى أسرع وقت ممكن . وقد جعل الناشرون ينشرون له وهو حى آثاره بعد الموت . ولعل

المثّال يهيئ تمثاله . وهذا بالضبط هو التضخم الأدبى . وفى الظروف العادية الهادئة يوجد فرق طبيعى مستقر بين العملة المتداولة وبين الغطاء الذهبى لهذه العملة ، كما يوجد مثل هذا الفرق بين شهرة مؤلف والكتب التى يخرجها . فاذا ما اتسع هذا الفرق نشأ تضخّم . وقد اتسع الفرق الآن إلى أقصى الحدود . وكل شىء يجرى كأن فرنسا فى حاجة ملحّة إلى رجال عظام .

وهذا يرجع أولا للصعوبة فى حلول كتّاب جدد محل أولئك الذين تنتهى مهمتهم ففى الظروف الطبيعية كان هذا الحلول يكفله التسرب المتصل لعناصر منتسبة إلى الأجيال الجديدة ، إلى الطبقات القديمة من الكتّاب . لذلك لم يكن التغيير ملموساً جداً وكان الشيوخ بتشبثهم بما اكتسبوا من امتيازات يقفون فى سبيل اندفاع المحدثين إلى حد ما . وبعد سنة ١٩١٨ اختل التوازن لمصلحة الشيوخ ، فإن الشباب بقوا فى ساحات القتال ، فى فردون على المارن والإيزر . أما اليوم فالأمر على عكس ذلك . نعم إن فرنسا فقدت كثيراً من شبابها ، لكن الهزيمة والاحتلال من ناحية أخرى عجلا بتصفية الكتّاب من الأجيال السابقة . فكثير من الشيوخ الذين كلّلهم المجد تحوّلت سيرتهم تحولاً سيئاً ، فى حين التمس غيرهم لأنفسهم مأوى فى الخارج يلجأون إليه ، وبقوا به يغمرهم النسيان شيئاً فشيئاً ، وفريق ثالث منهم أدركته الوفاة . وقد قال شاعر مجيد فى شىء من الحسرة والألم حين اطلع على تبت ناقص للأدباء الذين تعاونوا مع العدو : « إن كفة مجدنا لخفيفة بالقياس إليهم » . فمنهم الخونة والمتهمون أمثال مونتيرلان ، وسيلين ، وشاردون وجوهاندو ، ودريو ، وارناندیس ، وأبيل هرمان ، وأندريه اتيريف ، وهنرى بوردو . ومنهم المنسيون أمثال موروا ، ورومان ، وبرنانوس (وهذا الأخير يجتهد اليوم ما استطاع ليذكرنا بوجوده) . ومنهم المتوفون أمثال رومان رولان ، وجيرودو . ولما عاد ماريتان إلى نيويورك بعد زيارة قصيرة لفرنسا سئل عن رأيه فى الجمهورية الرابعة ، فقال : « إن فرنسا فى حاجة إلى رجال » يريد بالطبع : « . . . إلى رجال من سنى » . على أن من الحق رغم ذلك أن الخسارة المفاجئة فى صفوف الشيوخ من الأدباء قد تركت فراغاً كبيراً نحاول ملأه على عجل . كذلك تجرى الأمور فى بعض البلاد حين يتولى الحكم حزب جديد ، فإن هذا الحزب يبعد نصف مجلس الشيوخ ويعين مكانه أعضاء جدداً . وعلى ذلك رفع إلى مرتبة الزعامة بعض

الكتاب كانوا خليقين أن ينتظروها مدة طويلة لو أنهم نشاوا فى ظروف عادية . على أنه ليس بهذا بأس ، بل على العكس . ففى اثناء الاحتلال عند ما فجئ الجمهور بخيانة بعض كبار الكتاب تحوّل عنهم إلى رجال أحدث منهم سنًّا ولكن ممن يمكن الإعتماد عليهم فمنحهم ثقته وفى نفس الوقت أضفى على هؤلاء الناشئين الحديثين مجداً لما يستحقوه بعد بفضل آثارهم ، ولكنهم منحوه لا يجاد التعادل والتوازن بينهم وبين ما أفقده الخونة .

وكانت هذه الحركة تنطوى على قوة وعظمة مؤثرتين . وأنا أعرف بعض الكتاب الذين صمتوا فرفعهم صمتهم . لم يرفعهم من الناحية المعنوية كما يمكن أن يظن ، بل من الناحية الأدبية . وهذا عدل . فليس واجب الأديب مقصوراً على الكتابة بل يتعداها أيضاً إلى إيثار الصمت عندما تقضى به الضرورة . أما الآن وقد انتهت الحرب ، فمن الخطر أن نتصيَّد كبار الرجال معتمدين على نفس المبادئ والأسس . وقد كان الكتاب مضطرين إلى الراحة ، لكن الكتاب لا يستريحون . وليس بين الكتاب المنتجين اليوم من لم يشارك من قريب أو بعيد فى المقاومة ، كان له على الأقل ابن عم أو ابن خال أو أى قريب آخر اشترك فى هذه الحركة . وبذلك أصبحت الكتابة والمقاومة مترادفتين فى الأوساط الأدبية . وليس من بين المؤلفين من يظهر كتاباً جديداً عارياً مجرداً من كل شىء كالطفل الوليد ، بل كل كتاب يظهر تحيط به هالة من الشهامة . وينشأ عن ذلك لون خاص من الزمالة والإخاء . فإذا عرض الناقد لكتاب سأل نفسه : « كيف أستطيع وأنا من المشتركين فى المقاومة أن أقول لهذا المقاوم القديم إنى لا أسيغ قصته الأخيرة عن المقاومة ؟ » . وهو مع ذلك يقوله له لأنه أمين ، ولكنه يشعر القارئ أن هذا الكتاب ، على الرغم من إخفاقه ، ينطوى على صفات أرفع وأندر من تلك التى كان ينطوى عليها لو أنه نجح ، ينطوى على شىء كأنه أريج الفضيلة . وما هى إلا خطوة يسيرة فى هذا الاتجاه حتى يتحوّل هذا الخلط الذى لامفرّ منه بين القيمة المعنوية للكاتب وقيمته الأدبية ويستغل فى المصلحة السياسية . فكيف الوقوف فى وسط الطريق ! فمن اختار لنفسه فى براءة وسذاجة أن يحب قصصيًّا معيناً لأنه كان يقاوم العدو ، لِمَ لا يختار لنفسه أن يحب قصصيًّا آخر لأنه كان زميلاً له فى الحرب ؟ وفى بعض الأحيان تتداخل الأحكام وتختلط : فهذا الكاتب وهو « بورجوازى » وكاثوليكى ،

لا يمكن أن تكون له قيمة أدبية فى رأى الناقد من أحزاب اليسار ، ومع ذلك فإنه قيم ما دام قد اشترك فى المقاومة . ويخرج من هذه المآزق بتقديرات مختلفة متفاوتة ، ويجرى فى العالم الأدبى موجة قوية من المجاملة . لذلك لن أتهم بالجبن أولئك الذين يكبرون كتباً مراعين فى ذلك مغزاها السياسى أكثر من قيمتها الحقيقية . فهذه حالنا جميعاً اليوم . ولعل أشد المنكرين لهذه الحال قد يصدرون فى أحكامهم عن دوافع سياسية . والمؤلف الذى يختار على هذا النحو والذى يدفع إلى الصف الأول — على الرغم منه فى بعض الأحيان — يمثل المقاومة أو أسرى الحرب أو الحزب الشيوعى أو الحزب الديموقراطى المسيحى ، فهو يمثل كل شىء إلا نفسه . وكيف نعرف أن المكانة التى يحتلها تأتيه من السنوات التى قضاها فى المنفى أو فى السجن أو فى الغربة أو من المقاومة الخفيفة ، أو أنها تأتيه بكل بساطة من موهبته الأدبية . على هذا الأساس تستهلك الأحزاب السياسية عدداً ضخماً من كبار الرجال . ففى سنة ١٩٣٩ رشح الحزب الشيوعى الكاتب « بول نيزان » لجائزة الحلفاء الأدبية ، ومكنه من الحصول عليها . وكان « بول نيزان » فى ذلك الوقت المرشح الكبير ومنافس « أراجون » وقد غادر نيزان الحزب عند توقيع الاتفاقية الألمانية السوفيتية . وأنا أراه مخطئاً فى تصرفه ، وإن يكن ذلك من شأنى . ولكن ما هذا التحول الذى جرى بشأنه بعد ذلك ؟ يجب أن نلاحظ أولاً أنه مات مقاتلاً ، وأنه فضلاً عن ذلك كان كاتباً من الطراز الأول . واليوم فما بال الصمت يخيم على اسمه : فأولئك الذين يحصون خسائرنا يذكرون بريفو وديكور . أما نيزان فلا ذكر له . أيجب أن نستنتج من ذلك أن أراجون إذا ترك الحزب (وأنا أعرف أن هذا فرض غير معقول) سيهبط إلى أسفل الدرك بعد أن ارتفع إلى القمة ؟

والجمهور كله شريك فى هذا المسلك . وقد تبينّا فى خزى وهوان أن فرنسا لن تقوم فى عالم الغد بالدور الذى كانت تقوم به فى عالم الأمس . والحق أن أحداً منا لا يلام فى ذلك : فلم يكن فى بلدنا ما يكفيه من الرجال ، ولم يكن فى أرضنا ما يكفى من الثروة المعدنية . وضعف هذه الثروة المعدنية فى فرنسا ، مثله فى أوربا الغربية نتيجة تطور طويل . ولو أننا تنبهنا إلى الأمر تدريجيا لهيأنا أنفسنا لذلك فى شجاعة . على أن المهمة الباقية لنا لا تزال رائعة ، ولكنّا لم نَرَ الحقيقة إلا بعد الهزيمة . وحتى سنة ١٩٣٩ كان انتصارنا الماضى من جهة — ذلك الانتصار

الذى ساهم فى زيادة الأمور سوء على سوء بالاقلال من عدد السكان على أثر ضحايا الحرب — وإزدهار حياتنا الفكرية والأدبية من جهة أخرى ، كل ذلك أخفى عنّا قيمتنا الفعلية . فنحن نحتمل كارهين هذه الحقيقة التى اتّضحت لنا فى خشونة وجفاء . فالخزى الذى لحقنا على أثر هزيمتنا فى معركة سنة ١٩٤٠ ، والألم من حرماننا التسلط فى أوربا ، هذان الأمران يمتزجان فى قلوبنا . فيخيل إلينا أحياناً أننا دفنّا وطننا بأيدينا . وقد نرفع رأسنا أحياناً مؤكدين أن فرنسا الخالدة لا يمكن أن تموت . وبعبارة أخرى تسلط علينا فى السنوات الخمس الأخيرة داء عضال من مركب النقص . والموقف الذى يتخذه سادة العالم الآن ليس من شأنه أن يبرئنا من دائنا . نضرب المائدة بأيدينا فلا يصغى إلينا أحد . نذكّر بمجدنا الماضى ، فنُجاب بأنه بالفعل مضى وانقضى . إلا أننا أدهشنا العالم فى أمر واحد ، فإنه مازال يُعجب بقوة أدبنا فيقال لنا : « ماذا ! لقد هزمتم واحتل العدو أرضكم وخرّبها ، وأنتم على الرغم من ذلك تنتجون كل هذا الأدب ! » . ومن السهل تفسير أسباب هذا الإعجاب ، فإذا كان الإنتاج الأدبى للانجليز والأمريكين قليلا ، فذلك أنهم كانوا مجندين ، وكان كتّابهم مشتتين فى أنحاء العالم . أما نحن ، فعلى عكس ذلك ، كنّا مضطهدين ومطاردين ، وفى كثير من الأحيان معرّضين للموت . ولكننّا على الأقل كنّا فى فرنسا ، فى بلدنا ، فى منازلنا . وكان فى وسع كتّابنا أن يكتبوا ، إن لم يكن فى وضح النهار ، فعلى الأقل فى الخفاء . ثم إن رجال الفكر من الأنجلوسا كسون ، وهم مؤلفون طبقة خاصة منفصلة عن بقية الأمة ، يعجبون دائماً كلما رأوا فى فرنسا أدباء وفنّانين متصلين اتصالاً وثيقاً بحياة بلدهم ومعنيين بشؤونها . وأخيراً فإن كثيراً منهم يشارك فى هذا الشعور الذى أفضت به إلىّ قريباً سيدة إنجليزية إذ قالت لى : « يتألم الفرنسيون فى كبريائهم ، ويجب أن نقنعهم بأن لهم فى العالم أصدقاء . لذلك ينبغى ألاّ نتحدث إليهم الآن إلاّ فيما نعجب به من آثارهم وأعمالهم ، فى أدبهم مثلاً » . ونتيجة لهذا الأعجاب الذى تُسْرِع الشعوب فى إبدائه ، وتتكلف نشره ، تظهر الولايات المتحدة وانجلترا وكثير من الدول الأخرى فى العالم اهتماماً كبيراً بكتّابنا . ولم يحدث فى يوم من الأيام أن وجهت إلى كتابنا القصصيين وإلى سفرائنا دعوات بقدر ماوجهت اليهم الآن . ورغبةً فى رؤيتهم وفى الاجتماع إليهم وفى إطعامهم قد سمّنت سويسرا بعضهم وسمّنت أمريكا بعضهم الآخر .

وستعمل بريطانيا ما تستطيع . وفى أثر ذلك أخذنا أدبنا على أنه جدّ . فأولئك الذين لم يكونوا يرونه فيما مضى إلا عبثاً يتفرغ له المتعطلون ، أو نشاطاً منكراً يعتبرونه وسيلة من وسائل الدعاية فيتعلقون بمكانته الخطيرة لأن الأمم الأجنبية تؤمن بها . وقد يؤثر كثيرون منا أن يكون موضع الإعجاب بنا قوة صناعتنا أو كثرة عدد أسلحتنا . غير أن حاجتنا إلى التقدير بلغت حدًّا جعلهم يقنعون بالاعجاب بالأدب . وهم يتمنّون فيما بينهم وبين أنفسهم أن تستردّ فرنسا مكانتها الحربية فتصبح البلد الذى أنتج تورين وبونابرت ، ولكنهم مؤقتاً يقنعون أن تكون البلد الأدبى الذى نشأ فيه ريميو وڤاليرى . ويصبح الأدب فى نظرهم لوناً من ألوان النشاط يحلّ مؤقتاً محل غيره . وكان مباحاً أن يعتبر الكاتب رجيماً لعيناً فى ذلك الوقت الذى كانت المصانع فيه تُسيَّر ، وعندما كان للقواد جند يخضعون لأمرهم . أما اليوم فيبحث فى لهف عن كتاب ناشئين حديثى السن ، ويسرع فى وضعهم فى فرن صناعى كذلك الذى يوضع فيه بيض الدجاج لتعجيل فرخه ، حتى ينموا بسرعة فيصيروا رجالاً عظاماً يرسلون إلى لندن وستوكهلم وواشنطن .

ولم يتعرض الأدب قط لمثل هذا الخطر الحائق . فالسلطات الرسمية وغير الرسمية ، الحكومة والصحف بل كبار رجال المصارف والصناعة استكشفوا قوته وسيستغلونها فى مصلحتهم . وإذا نجحوا فى تحقيق غرضهم كان للكاتب بعد ذلك أن يختار ، فإما أن يختص فى نشر فنون الدعاية الانتخابية ، وإما أن يلتحق بقسم من أقسام وزارة الاستعلامات . وحينئذ لايهتم النقاد بتقدير مؤلفاته . بل بتقويم أهميتها الوطنية ومدى نفاذ أثرها . واليوم الذى يستطيعون فيه استعمال الإحصائيات فإن نشاطهم سيتقدم تقدماً عظيماً . والمؤلف إذ يصبح موظفاً ويرزح تحت عبء مظاهر التكريم سيتوارى فى استسلام وراء آثاره الأدبية . وعندئذ لن يذكر اسمه وعلى أحسن الفروض سيتحدث بسهولة التعبير عن قصته « لمالرو » أو « لشانسون » كما يقال اليوم شراب « فاولر » أوقانون « أهم » ، وذلك لمجرد الاستذكار . وتوجد على حدود المدن الكبيرة مصانع تجمع فيها القمامة ، وهذه القمامة تحترق احتراقاً جيداً ما بقيت الحرارة مرتفعة . والهيئة الاجتماعية ، وهى توالى مجهودها ، تريد أن تجمع هذه المواد التى لم ترها حتى الآن أوجهاً للاستعمال ، وأعنى بها الكتاب . ولنأخذ حذرنا من مثل هذا

العمل ، فقد كانت بيننا قامة ثمينة لابأس بها . فماذا نربح إذا تركناها تتحول إلى دخان ؟ ولا يجب أن تفهم المهمة الأدبية على هذا الوجه . نعم إن الكتاب حدث اجتماعى ، وإن على الكاتب حتى قبل أن يأخذ قلمه أن يقتنع بهذه الحقيقة كل الاقتناع . فالواقع أن عليه أن يشعر شعوراً تامًّا بتبعته ، فهو مسئول عن كل شيء : مسئول عن الانتصار فى الحروب وعن الهزيمة ، مسئول عن الثورات وعن قمعها ، وهو شريك فى الاضطهادات إذا لم يكن بطبيعته حليفاً للمضطهدين. وليس يرجع ذلك إلى أنه كاتب فحسب ، بل يرجع إلى أنه رجل قبل كل شيء . وهذه التبعة يجب أن يحياها وأن يريدها . (ويجب أن تكون الحياة والكتابة شيئاً واحداً بالقياس إليه ، لا لأن الفن ينقذ الحياة ، بل لأن الحياة تعبر عن نفسها بوسائل مختلفة ، ووسيلة التعبير عن الحياة هى الكتابة) . لا ينبغى أن يعكف على كتبه ليحاول أن يتبيّن مدى تأثيرها فى حفدته . فلا عليه أن يعرف أولا يعرف أنه سيستحدث تياراً أدبيًّا جديداً ، وكل مايطالب به أن يقوم بأداء مهمته ويتعهدها فى الوقت الحاضر . ليس عليه أن ينتقل إلى مستقبل بعيد ليحكم على آثاره ، إنما يجب أن تنصبّ إرادته على المستقبل القريب ، يوماً فيوماً . قد يرى المؤرخ أن الهدنة الموقعة سنة ١٩٤٠ أعانت على كسب الحرب ، معتمداً فى رأيه على أن ألمانيا لم تكن لتجرؤ على مهاجمة الاتحاد السوفيتى — وكانت هذه المهاجمة أول خطوة فى سبيل هلاكها — لو أن الإنجليز استقروا منذ سنة ١٩٤٠ فى مدينة الجزائر أو فى بيروت . هذا جائز . إلا أن هذه الاعتبارات لم تكن لتقوم سنة ١٩٤٠ إذ لم يكن فى وسع أحد أن يقدر وقوع النزاع بين ألمانيا وروسيا بمثل هذه السرعة . وعلى ذلك ، وعلى أساس المعلومات الواقعية التى كانت بين أيدينا فى ذلك الوقت ، كان يجب مواصلة الحرب . ولا يختلف الكاتب فى هذا عن رجال السياسة ، فإن مايعرفه قليل محدود ، ويجب أن يصدر عما يعرفه . وما عدا ذلك — أى مدى نجاح آثاره على مر الزمن — فمن أسرار الغيب التى لايمكن إدراكها . لنعترف أن لكتبنا ناحية ستخفى علينا دائماً : فالحب ، وسيرة الفرد ، والثورة ، كل هذه أمور نعرف أولها ولانتبين أعقابها . فلم يشذ الكاتب إذن عن هذا الحكم العام ؟ من أجل ذلك يجب أن يغامر ويقامر بالنتائج . ويقال له من كل صوب إنه الرجل المنتظر . فليعلم حق العلم أن ليس هذا حقًّا ، إنما ينتظر ممثل للفكر الفرنسى ، لا رجل يحاول فى قلق أن يبتكر التعبير

بالألفاظ عن معان جديدة . وقد قامت شهرته الحاضرة على خطأ فى الفهم والتقدير. و ينتظر الرجل العظيم دائماً لأنه مصدر فخر لأمته ، ولكن الفكرة العظيمة لا تنتظر لأن ظهورها يؤذى النفوس . فليقبل الأديب إذن الأصل الذى تقوم عليه الصناعة، وهو خلق الحاجة ليمكن إشباعها . فليخلق إذن الحاجة إلى العدالة والحرية والتضامن ، وليحاول أن يرضى هذه الحاجات بما ينشىء من آثار . ولنتمنّ أن يتاح له التخلص من مظاهر الحفاوة والتكريم التى أثقلت كاهله ، فيجد فى نفسه القوة التى تسمح له بالخروج على التقاليد ويشق لنفسها طرقها الجديدة معرضاً عن الطرق السلطانية ولو أعدت له الدولة سيارة تسابق البرق .

ولم أعتقد قط أن من اليسير إنتاج أدب رفيع إذا كان الاحساس رديئاً والشعور سيئاً ، ولكنى أعتقد كذلك أن الاحساس الرفيع والشعور الممتاز لا ينشآن عفواً ، بل لا بد من أن يثيرها الكاتب . وربما استطاع النقد أن يساهم فى إنقاذ الأدب إذا ما عُنِى بفهم الآثار الأدبية أكثر من عنايته بتقويمها . ومهما يكن من شىء فقد وطنّا أنفسنا على محاربة التضخم الأدبى . وأغلب الظن أننا لن نكسب بذلك عطف كثير من الناس . لكن الأدب نائم ، ومن الممكن أن يكون شعور عنيف ، وإن كان غضباً ، خليقاً بإيقاظه .

جان بول سارتر

نقلها عن الفرنسية دكتور توفيق شحاته